الدخيل في قصّة يوسف عليه السّلام

ا.د. علي حسن السيد رضوان *

(*) أستاذ بقسم التفسير والحديث - كلية الشريعة - جامعة الكويت.

ملخص البحث:

الدخيل هو التفسير الذي لا أصل له في الدين، على معنى أنه تسلل إلى رحاب تفسير القرآن الكريم على حين غفلة من الزمن، بفعل مؤثرات معينة بعد وفاة الرسول الكريم، وهذه المؤثرات ذات جانبين:

١ - جانب خارجي: ويتمثل في أعداء الإسلام من اليهود والنصارى والشيوعيين الموجودين الذين أرادوا أن يفسدوا الإسلام ويشوشوا على تعاليمه، ويظهروه أمام العالم في صورة غير لائقة به، انتقاماً لأمجادهم الغابرة، وذلك بدس خرافاتهم وأباطيلهم حول القرآن الكريم، قاصدين من وراء ذلك فتنة المسلمين في دينهم، وتشكيكهم في كتاب ربهم.

٢ - وجانب داخلي: ويتمثل في طوائف معينة انتسبت إلى الإسلام زوراً، ولكنها في الحقيقة تمت بصلة وثيقة إلى أعداء الإسلام السابقين، ومن هنا أدلت هذه الطوائف بدلوها - أيضاً - في التشويش على القرآن الكريم بنشر الخرافات والأباطيل حوله، وتفسيره تفسيراً كله تحريف وتخريف تمشياً مع المخطط الهدام الذي رسمه أعداء الإسلام - من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم - للقضاء على الإسلام وتحطيم عقائده وتعاليمه في النفوس.

وأبرز المعلومات الواردة في قصة يوسف:

١ - كثرة الروايات الإسرائيلية التي ألصقت بيوسف عليه السلام، نظراً لأنه نبي بني إسرائيل، فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وإبعادها عنه وبيان الرأي الصحيح.

٢ - أن يوسف عليه السلام قد شب على أكمل الأوصاف، عاملاً بما علم من آبائه وأجداده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٣ - الإيمان بالمبدأ يسهل ملاقاة الصعاب ومواجهة العواصف.

٤ - الالتجاء إلى الله عند الابتلاء، فقد اعتمد يوسف على الله تعالى في كل شدة ألمت به.

٥ – الدعوة إلى الله بمبدئه الذي اعتنقه، فاغتنم فرصة احتياج رئيس الخبازين ورئيس السقاة، فأخذ يدعوهما إلى دينه.

٦ – رفضه الخروج من السجن، حتى تثبت براءته.

٧ – ضرب يوسف المثل الأعلى في كثير من أنواع الصبر.

٨ – والرأي السليم في وقع النبأ على يعقوب عليه السلام ونوع الدم الذي جاءوا إليه به: هو ما أخبر به القرآن الكريم من قول يعقوب عليه السلام، «قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل» أي بل سولت لكم أنفسكم أمراً غير ما تفترون.

١٠– ولم يُبَيِّن القرآن اسم الذي اشتراه من السيارة في مصر، ولا منصبه، ولا اسم امرأته لأن القرآن ليس كتاب حوادث وتاريخ، وإنما قصصه حكم ومواعظ وعبر وتهذيب، وللمفسرين أقوال في اسم امرأة العزيز، واسم ملك مصر، ليس للقرآن شأن فيها.

١١– القول السليم في الهمّ الذي حدث أن همّه عليه السلام بها امتنع لوجود البرهان عنده، وهو حرصه على الطاعة، واستمساكه بآداب آبائه، وبأخلاقهم الزكية الطاهرة، ولا يقال: إن قوله: وهمّ بها لا يصلح جواباً لأن لولا لها الصدارة، ولولا حرف امتناع لوجود؛ امتنع الهم لوجود البرهان.

١٢– القول الصحيح في شاهد يوسف: أنه كان رجلاً للحديث الذي رواه البخاري فظاهر النص القرآني يفيد أن الشاهد كان رجلاً، وأن لفظ الشاهد لا يقع في العرف إلا على من تقدمت له معرفة بالواقعة وإحاطة بها.

١٣– القول الصحيح في مدة السجن: أنه بقي محبوساً مدة طويلة، لقوله «وادَّكر بعد أمة».

تمهيد:

يقتضينا منهج البحث، أن نتحدث أولاً عن معنى الأصيل لغة واصطلاحاً، ثم نتبعه بالحديث عن معنى الدخيل، لنقف على حقيقة أمره، كذلك حتى يميز لنا الأصيل في قصة يوسف عليه السلام من الدخيل والصحيح من العليل، فيقبل ما كان صحيحاً سليماً تؤيده الأدلة، ويرد ما كان سقيماً مريضاً تعوزه الحجج والبراهين، ويتضح لنا بجلاء ووضوح أن الأصيل لغة: هو الذي له أصل ثابت، ويمكننا أن نقول: إن الأصيل في الاصطلاح هو الذي له أصل في الدين، أو بتعبير آخر: هو ما ثبت عن طريق الكتاب، أو السنة، أو أقوال الصحابة، أو التابعين، ثبوتاً مقبولاً، أو جاء عن طريق الرأي المحمود المقبول.

والدخيل في اللغة: يستعمل في الأشخاص والألفاظ والمعاني، وأنه يطلق على ما ليس له أصل في المحيط الذي تسلل إليه.

والدخيل في الاصطلاح: هو ما نقل من التفسير، ولم يثبت نقله، أو ثبت ولكن على خلاف المقبول، أو كان من قبيل الرأي الفاسد.

أو بتعبير آخر: هو التفسير الذي لا أصل له في الدين، على معنى أنه تسلل إلى رحاب تفسير القرآن الكريم على حين غفلة من الزمن، بفعل مؤثرات معينة بعد وفاة الرسول الكريم، وهذه المؤثرات ذات جانبين.

١ - **جانب خارجي:** ويتمثل في أعداء الإسلام الحاقدين من اليهود والنصارى والشيوعيين الموجودين بين غيرهم الذين أرادوا أن يفسدوا الإسلام، ويشوشوا على تعاليمه، ويظهروه أمام العالم في صورة غير لائقة به انتقاما لأمجادهم الغابرة، وذلك بدس خرافاتهم وأباطيلهم حول القرآن الكريم، قاصدين من وراء ذلك فتنة المسلمين في دينهم وتشكيكهم في كتاب ربهم، وتفتيت وحدة الأمة الإسلامية، تلك التي أرسى قواعدها رسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم.

٢ - **وجانب داخلي:** ويتمثل في طوائف معينة انتسبت إلى الإسلام، ولكنها في الحقيقة تمت بصلة وثيقة إلى أعداء الإسلام السابقين، ومن هنا أدلت هذه

الطوائف بدلوها – أيضاً – في التشويش على القرآن الكريم بنشر الخرافات والأباطيل حوله، وتفسيره تفسيراً كله تحريف وتخريف، تمشياً مع المخطط الهدام الذي رسمه له أعداء الإسلام من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم للقضاء على الإسلام وتحطيم عقائده وتعاليمه في النفوس، يقول الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[1]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2] وإذاً قد اتضح لنا من تلك اللمحة معنى الدخيل لغة واصطلاحاً، فلنأت بعد ذلك إلى الحديث التفصيلي عن الدخيل في قصة يوسف عليه السلام.

يوسف عليه السلام

هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

كان يوسف جميل الصورة، أثيراً عند أبيه، يخصه بقسط عظيم من محبته. وكان ذلك سبباً في حقد إخوته عليه، وسبباً في محنته التي كانت خيراً وبركة عليه وعلى الأمم القريبة من مصر وعلى مصر، وذكر القصة يفيد أنه كان صغيراً، ولكن التوراة تقول كان سنه سبع عشرة سنة، وهذا غير معقول، لأن من كان في هذه السن يبعد ان يصنع معه ما صنع مع يوسف.

وقد رأى في منامه أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر سجدوا له، والذي في القرآن الكريم يفيد أن قصَّه هذه الرؤيا على والده كان في غيبة إخوته، وأن أباه قال له: **﴿لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا، إن الشيطان للإنسان عدو مبين، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إن ربك عليم حكيم﴾**.

---

(١) سورة الأنفال آية ٣٠.
(٢) سورة الصف آية ٨.

وتفيد عبارة التوراة أن ذلك كان بحضرة إخوته، وأن أباه انتهره على هذا القول، وقال: لعلنا نسجد لك أنا وأمك وأخوتك متهكماً، وما في القرآن هو الحق.

رأى أبناء يعقوب من إيثار أبيهم ليوسف وحدبه عليه، ما لم يكن لواحد منهم، فغاظهم ذلك وهم في عنفوان الشباب، وطيش الحداثة، فأضمروا له الشر، فقالوا لأبيهم: ﴿**مالك لأتامنا على يوسف وإنا له لناصحون؟ أرسله معنا غدا يرتفع ويلعب وإنا له لحافظون**﴾.

وكان يعقوب قد أحس الشر الذي يضمره بنوه لأخيهم، ولم يشأ أن يعلمهم بتخوفه جانبهم، فقال: ﴿**إني ليحزنني أن تذهبوا به**﴾ ثم ترقى في تعليل ظنه به قائلاً: ﴿**وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون**﴾ والله يعلم أنه يتخوف عدوانهم على ولده أكثر مما يتخوف من عدوان الذئب.

لم يهتم أبناء يعقوب بجواب أبيهم، بل أجابوه جواباً لا يبقي له علة يتشبث بها ﴿**فقالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون**﴾.

وهنا تخالف التوراة القرآن في هذه القصة وتقول: إن يعقوب هو الذي أرسل يوسف إلى إخوته من تلقاء نفسه، ليذهب إليهم في المرعى، ثم يعود ويطالعه بأحوالهم. وكانوا قد أبعدوا، فلما جاء وعليه قميص مخطط قد جاء به والده قالوا: قد جاء صاحب الأحلام، لابس البجاد المخطط، ثم ائتمروا به ما يصنعون، ثم انتهوا إلى أن يلقوه في الجب بعد ان يعروه من قميصه، ولا يسفكوا دمه، وأن يخبروا أباهم بأن مفترساً افترسه.

والقرآن يدل على أنهم تسلموه من يد أبيه، وذهبوا به، وأجمعوا على أن يجعلوه في غيابة الجب، ثم جاءوا أباهم عشاء يبكون، قالوا: يا أبانا إنا ذهبنا نستبق (أي في النضال بالسهام) وتركنا يوسف عند متاعنا، فأكله الذئب.

ولما كاد المريب يشعر من نفسه بالتهمة، ويتخيل أن كل واحد قد اطلع على خبيئة أمره قالوا لوالدهم: ﴿**وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين، وجاءوا على قميصه بدم كذب**﴾، فلم يخف عليه شأنهم، فأخذ القميص، ولما لم يجد به تمزيقاً ولا قطعاً قال لهم متهكماً: ما أحكم هذا الذئب الذي افترس ولدي ولم

يمزق عليه قميصه، ولم يعمل في قميصه ناباً ولا ظفراً! وقال لهم: ﴿**بل سولت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون**﴾[1].

ما ذكر بشأن الكواكب التي رآها ورؤيا أبيه ما يخاف عليه منه

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[2].

وقال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾[3] عندما فسر الإمام أبو السعود الآية الأولى تعرض لذكر أسماء الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام في منامه، فذكر في ذلك حديثاً مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال ما نصه: روي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن يهودياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف عليه السالم، فأخبره بذلك فقال: نعم. قال صلى الله عليه وسلم: جريان، والطارق، والذيال، وذو الكنفات، وقابس، ووثاب وعمو ذان، والفيلق، والمصبح، والضروح، وذو الفرع، والضياء والنور. فقال الهودي: أي والله إنها لأسماؤها[4].

وعندما تعرض أبو السعود لتفسير الآية الثانية، ذكر أن السبب في قول يعقوب: (وأخاف أن يأكله الذئب)، أنه رأى في منامه أن الذئب شدَّ على يوسف، فلذلك خافهم عليه، وقد لقنهم العلة «إن البلاء موكل بالمنطق».

وقيل: إنه رأى في منامه كأنه على ذروة جبل، وكان يوسف في بطن الوادي، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته تريد أكله، قد راعته واحداً، ثم

---

(١) قصص الأنبياء ص١٥٥-١٥٦.
(٢) سورة يوسف آية ٤.
(٣) سورة يوسف آية ١٣.
(٤) تفسير أبي السعود جـ٤ ص٢٥٢، وتفسير ابن كثير جـ٢ ص٤٥٢، ٤٥٣.

انشقت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة ايام، فكانت العشرة إخوته لما تمالأوا على قتله، والذي دافع عنه أخوه الأكبر.. يهوذا، وتواريه في الأرض هو مقامه في الجب ثلاثة أيام.

أقول: الحديث الذي ذكره أبو السعود في أسماء الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام وكذلك ابن كثير، موضوع على ما نص عليه ابن الجوزي في الموضوعات، وقد قال رحمه الله بعد إيراده لهذا الحديث (في كتاب الموضوعات): وهذا حديث موضوع على رسول لله صلى الله عليه وسلم، وكأن واضعه قصد شين الإسلام بمثل هذا.. وذكر في إسناده الحكم بن ظهير[١].

وقد أورد الهيثمي هذا الحديث في مجمع الزوائد عن البزار، وقال: فيه الحكم بن ظهير، وهو متروك[٢].

فمدار الرواية إذن على الحكم بن ظهير الفزاري، وتضعفه الأئمة، وتركه الأكثرون، وقال الجوزاني: ساقط، وهو صاحب حديث يوسف[٣].

وقال الذهبي في الميزان: قال ابن معين: ليس بثقة، وقال مرة: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال مرة: تركوه[٤]، وبحسبه سقوطاً مقالة البخاري فيه «منكر الحديث» وتركوه «كما ذكر صاحب تنزيه الشريعة عن الاخبار الشنيعة الموضوعة.. هذا الحديث من رواية جابر، ومن طريق سعيد بن منصور، وقال محقق الكتاب عن هذا الحديث: إنه حديث منكر، تقتضي نكارته الحكم بوضعه جزماً... وهو في الحقيقة مأخوذ عن الإسرائيليات[٥].

أما ما ذكره أبو السعود – من أن يعقوب عليه السلام رأى في منامه ما يخاف منه على ولده يوسف – فلا يستطيع أحد أن ينكر عليه إبداء مخاوفه

---

(١) الموضوعات جـ١ ص١٤٦.
(٢) انظر كتابه جـ٧ ص٣١.
(٣) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٢٩٨.
(٤) ميزان الاعتدال جـ١ ص٥٧١-٥٧٢.
(٥) تنزيه الشريعة لابن عراق جـ١ ص١٩٤ بتحقيق عبدالوهاب عبداللطيف وعبدالله محمد.

على ابنه عندما عرض عليه إخوته أن يأخذوه معهم، ولكن أي دليل على صحة ما ذكر من أن يعقوب عليه السلام رأى في منامه أن الذئب شد على يوسف؟ أو أنه رأى عشرة من الذئاب احتوشته وأن الأرض ابتلعته.

إن كل ذلك إلا إسرائيليات مدسوسة، أوردها الثعلبي[1] في العرائس وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنه، وهو منها براء؛ لأن يعقوب عليه السلام لو كان قد رأى ذلك فعلاً لما وافق على إرساله معهم، حيث إن رؤيا الأنبياء حق كما هو معلوم، ولأنه يكون بذلك ملقياً بولده إلى التهلكة، فتكون الرؤيا والحال هذه منذرة محذرة مما يكون من شأنه أن يحتاط على ولده الذي كان يحبه ويشفق عليه، فلا يرسل به إلى حيث يتوقع عليه منه الضرر.

وقد عقب الإمام الألوسي رحمه الله على ما قيل بشأن هذه الرؤيا، فقال ما نصه: (وأنا لم أجد لرواية الرؤيا – مطلقاً – سنداً يعول عليه، ولا حاجة بنا إلى اعتبارها؛ لتكلف الكلام فيها)[2].

ما ذكر بشأن صنيع إخوته به

بعد أن ترك يوسف في الجب (البئر) وكانت قليلة الماء جاءت سيارة (قافلة) فأرسلوا واردهم، فأدلى دلوه في الجب، فتعلق به يوسف لما نزع الدلو يحسبها قد امتلأت ماء، فإذا غلام وسيم تعلق بها، فاستبشر الرجل، وقال: يا بشرى هذا غلام.

ويقول المفسرون: إن الذين كانوا على الماء ادّعوا في القافلة انهم اشتروه من سادته. وأسروه بضاعة، حتى وردوا إلى مصر، وشروه – أي باعوه – بثمن بخس، وكانوا فيه من الزاهدين.

وكثير من الناس حتى بعض العلماء يقولون: إن إخوته هم الذين انتشلوه من الجب وباعوه للسيارة، وعبارة التوراة لا تساعدهم، ونظم القرآن لا يساعد

---

(١) انظر قصص الأنبياء المسمى عرائش المجالس ص٩٨.
(٢) تفسير الألوسي جـ١٢ ص١١٥.

على ذلك، لأن ذكر السيارة وواردهم لم يعد إلى ذكر إخوة يوسف في هذا المقام، والذي في التوراة أن إخوة يوسف بعد أن ألقوه في الجب جلسوا للطعام، ورأوا قافلة من الإسماعيليين تقصد مصر ومعهم الطيب، وجاءت قافلة أخرى من المديانيين فسحبوا يوسف من البئر وباعوه للإسماعيليين، وأن يهوذا أشار على إخوته ألا يتركوا يوسف في الجب وأن يبيعوه، ولما جاء راوبين إلى الجب لم يجد يوسف، فمزق ثيابه وبكى، وهذا كله ينفي ما اشتهر من أنهم باعوه، والمفسرون ينقلون عن أهل الكتاب كثيراً مما لا أصل له، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

عندما تعرض أبو السعود لتفسير هذه الآية الكريمة، ذكر ما قاله الرواة من تحديد البئر التي ألقى فيها يوسف، وما جاء بشأن إيذاء إخوته له، فقال ما نصه: (فقيل: هي بئر بأرض الأردن، وقيل: بين مصر ومدين، وقيل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التي هي من نواحي الأردن، كما أن مدين كذلك، وأما ما يقال: من أنها بئر بيت المقدس، فيرده التعليل بالتقاط السيارة، ومجيئهم أباهم عشاء ذلك اليوم، فإن بين منزل يعقوب عليه السلام وبين بيت المقدس مراحل، وجاء في التفسير: يروى أنهم لما برزوا إلى الصرحاء أخذوا يؤذونه ويضربونه، حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويستغيث فقال يهوذا: أما عاهدتموني أن لا تقتلوه؟ فأتوا به إلى البئر، فتعلق بثيابهم فنزعوها من يديه، فدلوه فيها، فتعلق بشفيرها، فربطوا يديه، ونزعوا قميصه، لما عزموا عليه من تلطيخه بالدم، احتيالاً لأبيه، فقال: يا إخوتاه ردوا عليّ قميصي أتوارى به، فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً تؤنسك، فدلوه فيها، فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي، فنادوه، وظن أنها رحمة أدركتهم، فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه، فمنعهم يهوذا، وكان يأتيه بالطعام كل يوم.

---

(١) سورة يوسف آية ١٥.

ويروى أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وجرد عن ثيابه أتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تميمة وعلقها في عنق يوسف، فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه من التميمة فألبسه إياه[1].

موقفنا من هذه الأقوال

أقول: أورد الإمام أبو السعود أقوالاً أربعة متباينة في تعيين البئر التي القي فيها يوسف عليه السلام، فذكر أنها بأرض الأردن، وقيل: بين مصر ومدين، وقيل: بكنعان، وقيل: ببيت المقدس، ارتضى منها الثلاثة الأول ورد الرابع والأخير.

وأقول: كلها مردودة، وليس هناك واحد أرجح من غيره، إذ الأقوال كلها مجتمعة مفتقرة إلى دليل، ولا دليل.

وما كلفنا الله عز وجل بتعيين الجب التي ألقي فيها يوسف عليه السلام إذ أن تحديدها لا تعود منه على المخاطبين فائدة، ولو كان لذكرها القرآن، كذلك لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم خبر صحيح في هذا الشأن، فلم الخوض إذن في أمر لا ينفع علمه، ولا يضر جهله، وأما ما ذكره أبو السعود من أن إخوة يوسف أمعنوا في إيذائه، ونكلوا به، وما ذكر من تعلق يوسف بشفير البئر، وتوسله إلى إخوته أن يردوا عليه قميصه وما ذكر – أيضاً – من نزول جبريل عليه السلام ليلبسه قميص إبراهيم عليه السلام، فما كل ذلك إلا إسرائيليات، لا تصح في نظر العقل، ولا يؤيدها أثر صحيح، فضلاً عن أنه لا فائدة ترجى من وراء ذكرها.

على أن هذه الأقوال التي ذكرها أبو السعود دون أن يعزوها لقائل إنما

---

(١) تفسير أبي السعود جـ٤ ص٢٥٨.

هي من أقوال السدِّي على ما ذكره الإمام الرازي[١]، أو هي من أقوال وهب بن منبه على ما ذكره الإمام الألوسي[٢].

وليس من شك أن كلاً منهما - أي وهبا، والسدِّي - قد نقلا كل هذه الروايات عن أهل الكتاب، إذ أنهما معروفان بمثل ذلك، ومن يرجع إلى الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين يجد صدق ما نقول.

ورحم الله الإمام الألوسي حين ذكر هذه الروايات التي قيلت في كيفية إلقائه، وما قال، وما قيل له كثير، وقد تضمنت ما يلين له الصخر، ولكن ليس فيها ما له سند يعول عليه[٣].

أما صاحب تفسير المنار: فقد أنكر هذه الروايات واعتبرها من الإسرائيليات المنفرة من الإسلام والمسلمين، فقال: (وقد نقلوا عن السدي أن إخوة يوسف طغوا في القسوة عليه، والتنكيل به، فقد قالوا وفعلوا ما لا يصدر مثله إلا من رعاع الناس، وأراذل المجرمين الظالمين، وما هي إلا الإسرائيليات المنفرة من الإسلام والمسلمين[٤].

وجملة القول في كل ما قيل: إنه من الإسرائيليات فعلاً، بيد أن موقفنا منه ينبغي أن يكون من قبيل ما لا يصدق وما لا يكذب، والله أعلم.

ما قيل في وقع النبأ على يعقوب عليه السلام ونوع الدم الذي جاءوا إليه به

قال تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا

(١) تفسير الفخر الرازي جـ١٨ ص١٠١.
(٢) تفسير الألوسي جـ١٢ ص١٩٧.
(٣) تفسير الألوسي جـ١٢ ص٢٢٠.
(٤) تفسير المنار جـ١٢ ص٢٢٠.

وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[1].

عند تفسير أبي السعود لهذه الآيات تحدث عن حال يعقوب عليه السلام عندما أخبره بنوه أن يوسف عليه السلام قد أكله الذئب فقال ما نصه: (روي أنه لما سمع يعقوب عليه السلام بكاءهم فزع، وقال: ما لكم يا بني؟ وأين يوسف؟ قالوا: يا أبانا، إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا، فأكله الذئب.. وجاء في التفسير، روي أنهم ذبحوا سخلة ولطخوا قميص يوسف بدمها، وزل عنهم أن يمزقوه، فلما سمع يعقوب بخبر يوسف عليهما السلام، صاح بأعلى صوته، وقال: أين القميص؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى، حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا، أكله ولم يمزق عليه قميصه!! وفي الحديث «الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه» وقيل: سقط حاجباه على عينيه، فكان يرفعهما بعصابة، فقيل: ما هذا؟ قال: طول الزمان، وكثرة الأحزان، فأوحى الله عز وجل إليه: يا يعقوب أتشكوني؟ قال يا رب خطيئة فاغفرها لي)[2].

١ - أقول: ما ذكره أبو السعود من حال يعقوب، وما أصيب به من الفزع عندما أخبره بنوه أن يوسف قد أكله الذئب. وما ذكره - أيضاً - من أن إخوة يوسف ذبحوا سخلة ولطخوا قميصه بدمها، أو أنهم قاموا باصطياد ذئب ليقدموه دليلاً على صدق دعواهم، على ما ذكره الثعلبي من أنهم لما رجعوا إلى أبيهم عشاء يبكون قال لهم يعقوب: إن كنتم صادقين في أن الذئب أكله فأين الذئب؟ ائتوني به، فعمدوا إلى حبالهم وعصيهم فأخذوها ومضوا إلى الصحراء، فاصطادوا ذئباً، وشدوه وأوثقوه كتافاً، ثم حملوه إلى يعقوب وأقعوه بين يديه.. إلخ[3].

---

(١) سورة يوسف الآيات ١٦، ١٧، ١٨.
(٢) تفسير أبي السعود جـ٤ ص٢٥٦-٢٦٠.
(٣) انظر العرائس ص١٠١.

أقول: إن كل ذلك إلا من إسرائيليات بني إسرائيل وأكاذيبهم على الأنبياء التي لا يمكن الوثوق بها، ولا الاطمئنان إليها، وكان الأولى بإمامنا أبي السعود رحمه الله أن يكف عنها، ولا يسود بها صفحات كتابه، ومن يرجع إلى الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين يجد فيه أصل ما جاء في هذه الأخبار الغريبة، فقد جاء في الإصحاح المذكور (فأخذوا قميص يوسف، وذبحوا تيساً من المعز، وغمسوا القميص في الدم، وأرسلوا القميص الملون، وأحضروه إلى أبيهم، وقالوا: وجدنا هذا، حقق، أقميص ابنك هو أم لا؟ فتحققه وقال: قميص ابني، وحش رديء أكله، وافترس يوسف افتراسا، فمزق يعقوب ثيابه وناح على ابنه أياماً كثيرة، فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه، فأبى أن يتعزى وقال: إني أنزل إلى ابني نائحاً، وبكى عليه أبوه)[1].

وهكذا يتبين لنا بوضوح أن كل هذه الأخبار منقولة من كتب أهل الكتاب، فالإعراض عنها أولى بنا، إذ إنه لا فائدة فيها، كما أن الاشتغال بها عبث.

٢ - ما ذكره أبو السعود من أن يعقوب عليه السلام طلب من بنيه قميص يوسف فليس هناك اي دليل على أن يعقوب طلب منهم هذا المطلب.

وإنما قدم له أبناؤه قميص يوسف من تلقاء أنفسهم، ظناً منهم أن هذا العمل يخفي من معالم جريمتهم النكراء، أو ليموهوا به عليه، شأنهم في ذلك شأن أي مرتكب للجريمة، يدفعه شعوره الداخلي إلى تقديم ما يظنه دليلاً على براءته.

الرأي السليم

والذي يجب أن يعتقد في هذا المقام - أو في هذه الجزئية من قصة يوسف عليه السلام - هو ما أخبر به القرآن الكريم من قول يعقوب عليه السلام ﴿**قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل**﴾ أي بل سولت لكم أنفسكم أمراً غير ما تصفون من الكذب، أو غير هذا الذي تقدمونه اعتذاراً.

---

(١) العهد القديم ص٦٢.

ومن نافلة القول أن نقول: إن «بل» رد لقولهم: «أكله الذئب» كأنه قال: ليس كما تقولون «بل سولت لكم أنفسكم أمراً» فهذا الإضراب تكذيب صريح تقديره: إن الذئب لم يأكله، بل سولت لكم أنفسكم الأمارة بالسوء في شأنه أمراً إمْراً، وكيداً نكرا، وزينته في قلوبكم، فطوعته لكم. حتى اقترفتموه، أي هذا أمركم، وأما أمري معكم ومع ربي: فصبر جميل، أو فصبري صبر جميل، لا يشوه جماله جزع اليائسين من روح الله، القانطين من رحمة الله، ولا شكوى إلى غير الله المستعان على ما تصفون[1].

٣ – أما قول الرواة: إن الدم الذي لوثوا به القميص، كان دم سخلة أو جدي، أو ظبية، فجائز أن يكون كما ذكر، وجائز أن يكون غيره.
والأولى: فيما ذكروه: الالتزام بما أخبر به القرآن الكريم من أنه دم كاذب، دون تعيين للمصدر الذي استمدوه منه، وبتفويض ذلك إلى علم الله العليم الخبير.

٤ – وأما الحديث الذي أورده أبو السعود وهو «الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه» فقد أخرجه ابن جرير الطبري بالإسناد التالي: قال حدثنا عمرو بن عوف، قال: أخبرنا هشيم عن عبدالرحمن بن يحيى عن حبان بن أبي جبلة، قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله: فصبر جميل؟ قال: صبر لا شكوى فيه، قال: من بث لم يصبر[2].

وخرجه الجلال السيوطي في الدر المنثور، وزاد نسبته لابن أبي الدنيا في كتاب الصبر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن حبان بن أبي جبلة[3]، وقال عنه الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: إنه مرسل.

يوسف عند سيده

القول الصحيح: أنه بيع لرئيس الشرطة في مصر، ولم يعين البلد الذي كان عاصمة الملك في البلاد المصرية في ذلك الحين، والأقرب أنها مدينة صان

---

(١) انظر تفسير المنار جـ١٢ ص٢٢٠–٢٢١ بتصرف قليل.
(٢) جامع البيان جـ١٢ ص٩٩.
(٣) الدر المنثور جـ٤ ص١٠.

الحجر ببلاد الشرقية، قرب بحيرة المنزلة، وذلك أن ملك مصر في ذلك العهد كان من العمالقة الذين وردوا مصر قبل نزول إبراهيم، وكان منهم الملك الذي أكرم مثوى إبراهيم، وأعطاه الأموال الكثيرة، وهم الذين شغلوا تاريخ مصر ما بين الأسرة الرابعة عشرة إلى الأسرة الثامنة عشرة، التي منها أحمس الذي طرد العمالقة من مصر، ولما حصل يوسف عند سيده، ألقى الله على سيده محبته، فقال لامرأته: أكرمي مثواه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولدا، وكان سيده رئيس شرطة المدينة، فكان يوسف أثيراً لديه، فجعله صاحب أمره ونهيه، والرئيس على خدمه، والمتصرف في بيته، بحيث لم يكن لأحد ممن في الدار كلمة أعلى من كلمة يوسف، سوى كلمة سيده وسيدته، وقد تولى الله تعالى يوسف بالهداية والتربية والتوفيق، وعلمه من لدنه علماً عظيماً، كما قال تعالى: **﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تاويل الاحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين﴾**[1].

ما حدث ليوسف بعد خروجه من الجب وما كان منه حتى اشتراه عزيز مصر

قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾[2].

---

(١) قصص الأنبياء ص١٥٧.

(٢) سورة يوسف الآيات ١٩، ٢٠، ٢١.

عند تفسير هذه الآيات الكريمة، تحدث أبو السعود عما حدث ليوسف بعد أن أخرجه وارد السيارة من الجب فقال ما نصه: (وأسروه) أي أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الرفقة، وقيل: أخفوا أمره ووجودهم له في البئر، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء، لبيعه لهم بمصر، وقيل: الضمير لإخوة يوسف، وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بطعام، فأتاه يومئذ فلم يجده فيها، فأخبر إخوته، فأتوا الرفقة وقالوا: هذا غلامنا، أبق منا، فاشتروه منهم، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه، ولا يخفى ما فيه من البعد.

وعن الثمن الذي بيع به قال أبو السعود: (عن ابن عباس رضي الله عنه أنها كانت عشرين درهما).

وعن السدي أنها كانت اثنتين وعشرين درهما.. ثم نجده وهو بصدد تفسير قوله تعالى: ﴿**وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته**﴾. يقول ما نصه: (وهو العزيز الذي كان خازناً، واسمه قطفير أو إطفير.. وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد العمليقي، ومات في حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمن به، وملك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه إلى الإسلام فأبى، وقيل: كان الملك في أيامه فرعون موسى عليه السلام عاش أربعمائة سنة، لقوله عز وجل ﴿**ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات**﴾ وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء، واختلف في مقدار ما اشتراه به العزيز، فقيل: بعشرين ديناراً، وزوجين من نعل، وثوبين أبيضين، وقيل: أدخلوه في السوق يعرضونه، فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً، ووزنه ورقاً، ووزنه حريراً، فاشتراه قطفير بذلك المبلغ لامرأته راعيل أو زليخا، وقيل: اسمها هو الأول، والثاني لقبها)[1].

١ - أقول: ما ذكره أبو السعود من أن الضمير في «وأسروه» لإخوة يوسف، وذلك يعني أنهم هم الذين قاموا ببيعه فخلاف الظاهر، ذلك أن نظم القرآن لا

---

(١) تفسير أبي السعود جـ٤ ص٢٦١-٢٦٢.

يساعد عليه، وهذا ما أميل إليه وأرجحه، لأن القرآن ذكر السيارة وواردهم ولم يعد إلى ذكر إخوة يوسف في هذا المقام، وعليه فإن السيارة هم الذين باعوه: (لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به، لا يبالي بأي شيء يبيعه، أو لأنهم خافوا أن يظهر المستحق فينزعه من يدهم، فلا جرم باعوه بأوكس الأثمان)[1] ولعلهم تعجلوا في بيعه بهذا الثمن البخس خوفاً من فراره منهم، أو خشية اغتصاب المغتصبين الذين لا يخلو منهم زمان أو مكان، فأرادوا أن يريحوا أنفسهم.

أما أن يقال: إخوة يوسف هم الذين قاموا ببيعه فبعيد، إذ لا شك أنهم كانوا حريصين على إبعاد أي تهمة عنهم تثبت إدانتهم، وكونهم يقومون ببيعه لهؤلاء الذين أخرجوه من الجب مدعين أنه مملوك لهم آبق منهم مع كتابتهم لهم كتاباً بذلك متضمناً أسماءهم يثبت إدانتهم جميعا، وهذا ما لا يتفق مع سر يتكاتمونه فيما بينهم، فأمثال تلك الأحداث يحرص مدبروها على صبغتها بالسرية التامة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وإن كان هذا لا يمنع جواز مراقبتهم له من بعيد.

٢ – أما ما ذكره أبو السعود من روايات تحدد الثمن الذي بيع به يوسف عليه السلام، وأنه كان عشرين درهما، أو اثنين وعشرين درهما – وعزا هاتين الروايتين إلى ابن عباس والسدي – أو كان الثمن عشرين ديناراً، أو غير ذلك مما هو مذكور من الأعيان كالمسك والحرير وغيرهما التي بلغت أضعاف وزنه.

أقول: من أين أتى أصحاب هذه الروايات بتلك الأرقام من النقد والأعيان ثمناً ليوسف عليه السلام، دون أن يذكر في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة شيء منها، إن كل ما ذكره القرآن بخصوص هذا الموضوع أن يوسف عليه السلام بيع بدراهم معدودة، بمعنى قليلة، دون أن يبين مقدار عددها، وإذا

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ١٢ ص١١٠.

كان الأمر كذلك، فلا داعي بعد ذلك لتحديدها أو تقديرها، كما انه لا يصح ولا يجوز أن نقول: إنه عليه السلام كان ضمن ثمنه زوجان من النعال، ورحم الله الإمام الطبري فقد ذكر ما ذكره أبو السعود وغيره من الثمن الذي بيع به يوسف ثم عقب عليه فقال: (والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يحدد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة في كتاب ولا خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم.. إلى أن قال: وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا في الجهل به دخول ضرر فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرض، وما عداه فموضوع عنا تكلف علمه)[1].

٣ - وأما ما ذكره أبو السعود من أن عزيز مصر كان يسمى قطفيرا أو إطفيراً، وأن امرأته كانت تسمى زليخا أو راعيل، وما قيل من إيمان الملك في حياة يوسف أو عدم إيمانه، فتلك أمور اختلف فيها المفسرون، وأكثروا من القول، وأحسب أن هذا لا يصح، وخاصة أن مثل هذه الأمور من أخبار الماضين، فهي أمور غيبية، ليس لنا أن نتكلم فيها إلا بما ورد الشرع به، ومما يؤيد فهمنا لهذا القول: أن الإمام الرازي - رحمه الله - قد ذكر ما ذكره أبو السعود عن ثمن يوسف، وعن اسم عزيز مصر وملكها، وما قيل من إيمانه في حياة يوسف وعدم إيمانه، وغير ذلك مما جاءت به الروايات فعقب عليها بما يفندها، فقال: (واعلم أن شيئاً من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن، ولم يثبت - أيضاً - في خبر صحيح، وتفسير كتاب الله لا يتوقف على شيء من هذه الروايات، فالأليق بالعاقل أن يحترز من ذكرها)[2].

وأيضاً يقول صاحب المنار في هذا المجال: (لم يبين القرآن اسم الذي اشتراه من السيارة في مصر، ولا منصبه، ولا اسم امرأته، لأن القرآن ليس

---

(١) جامع البيان جـ١٢ ص١٠٣.
(٢) تفسير الفخر الرازي جـ١٢ ص١١١.

كتاب حوادث وتاريخ، وإنما قصصه حكم ومواعظ وعبر وتهذيب.. وللمفسرين أقوال في اسم امرأة العزيز، واسم ملك مصر، ليس للقرآن شأن فيها)[1].

أجل فليس للقرآن شأن في مثل هذه الأمور، وعلينا أن نؤمن بذلك كما علينا أن نؤمن أنه ليس من مهمة القرآن تحديد الأشخاص ولا تعيين الأسماء، وإنما مهمته الإرشاد إلى ما تدل عليه القصة من جهات العظات وأنواع العبر، كما أنه لا ينبغي لنا أن نشغل أنفسنا بما لا يتوقف على معرفته أو عدم معرفته تفسير آيات الكتاب العزيز والله أعلم.

ولصاحب الظلال ملحظ طيب في مثل هذه الأمور، ومن المفيد إثباته في هذا المقام، يقول رحمه الله: (إن النص القرآني يغفل أسماء الأشخاص، وأعيان الذوات، ليصور نماذج البشر، وأنماط الطباع، ويغفل تفصيلات الحوادث، وجزئياتها، ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية، هذه التي لا تنتهي بانتهاء الحوادث، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص، ولا تنقضي بانقضاء الملابسات، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلاً لكل جيل ولكل قبيل).

موقف يوسف من امرأة العزيز

كان مِنَّة الله تعالى على يوسف بالجمال الرائع مكمناً لمحنته، ومحنته مكمناً للمنة العظيمة عليه وعلى آله وعلى أهل مصر، وجميع الأمم التي تقرب من مصر. كما قال ابن عطاء الله السكندري: «ربما كمنت المنن في المحن» وكانت تلك المحن أن امرأة العزيز نظرت إلى يوسف وما هو عليه من الخلق السوِّي والجمال المفرط، فأشعل ذلك في نفسها جذوة الحب، وصار ذلك يزداد بتكرر رؤيتها له، إلى أن غلبها الحب على حيائها، فأخذت تداعب يوسف وهو يعرض عنها لعاملين، يكفي كل واحد منهما لعزوفه عما تريد.

الأول: إيمانه بالله، وامتثاله أوامره بالتزام الطهارة من الأرجاس الخلقية، تلك الطهارة التي وجد عليها أباه وجده وجد أبيه.

---

(١) تفسير المنار جـ١٢ ص٢٢٤.

ثانيهما: إن بعلها سيده الذي حدب عليه، وأكرم مثواه، ومكن له في بيته، وجعله المتصرف في أمواله وخدمه، ووثق به ثقة ليس لها حد، فلا ينبغي أن يقابل نعمته بالكفران، فلو لم يكن له دين يحجزه عن الشر ويلزمه الطهارة لكان ذلك كافياً لحفظ سيده في أهله، والبعد عن تدنيس فراشه. كان ذلك دأب يوسف معها. إلى أن هاج بها هائج الغرام، واعتزمت على شفاء ما في نفسها من الصبابة، فصارحته القول، ودعته إلى نفسها دعوة لا هوادة معها، واحتاطت للأمر، وأخذت عدتها له، وغلقت الأبواب، وقالت ليوسف: هيت لك؛ فأبى، وقال: إنه - أي بعلها - ربي أحسن مثواي، إنه لا يفلح الظالمون. وفي هذا الموقف العنيف، شاب في ريعان شبابه، ونضارة الفتوة، تدعوه سيدته الجميلة إلى نفسها، فيغلبه دينه، ويعصمه رعيُ الذمام لسيده، ثم يولي وجهه شطر الباب، يطلب النجاة من شيطان غوايتها، وهي تجاذبه ثوبه، وهو العصي، حتى تمزق من خلفه إلى أن يغلبها، ويفلت من يدها، فيستبقان الباب. هو يريد فتح مغلقه، وهي تريد أن تحول بينه وبين ما يشتهي من الإفلات من يدها، دون قضاء رغبتها. وحينئذ يجد أن بعلها عند الباب[1] تدبروا واقرأوا قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ﴾[2].

---

(١) ساقت التوراة هذه القصة في سفر التكوين في الإصحاح ٣٩، وهي لا تختلف عن القرآن إلا في شيء واحد، وهو أنها لما أمسكت بثوب يوسف خلعه لها، فنادت الخدم، وأخبرتهم بأن بعلها جاء برجل عبراني يداعبها، وأن يوسف لما رأى المكان خالياً طلب أن يضاجعها، فأبت، وصرخت بصوت عظيم، وكان قد خلع ثوبه استعداداً للأمر، فخاف حين استغاثت، وهرب وترك عندها قميصه.

(٢) سورة يوسف الآيات ٢٣، ٢٤، ٢٥.

الأقوال في الهم الذي حدث

وللعلماء في تفسير هذه الآية آراء.

الأقوال المرفوضة:

١ – إن امرأة العزيز قد همت بيوسف ليضاجعها، وهو همّ بها، وأنه قعد منها مقعد الرجل من امرأته، فلم يبق شيء دون إتمام ما قصدته وقصده، جاء جبريل وأخبره بأنه سيكون نبياً، وهذا العمل لا يليق من الأنبياء، فكف عنها. وهذا برهان ربه، ومعنى الآية: لولا أن رأى برهان ربه لفعل.

٢ – وقال آخرون: إن البرهان الذي رآه وهو على هذه الحال أن نظر فرأى وجه أبيه وهو يؤنبه على هذا العمل عاضاً على أنامله.

٣ – وقال آخرون: إن يوسف – وهو في تلكم المحال – نودي من الله: يا يوسف، إنك مكتوب في ديوان الأنبياء، وتعمل عمل السفهاء! إلى غير ذلك من الأقوال الباردة، والقائلون بذلك لم يفهموا قول الله تعالى في تلك الآية: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فكيف يكون قد صرف عنه السوء، وهو قد تهيأ لفعل الفاحشة، وأصغى إلى شيطان الغواية، ولم يرجع – كما يقولون – إلا بعد أن رأى من الزواجر والروادع ما يكفي لصرف أعظم الفسقة والمستهترين عن الغي ومتابعة الشهوة، وكيف يوصف بأنه من المخلصين من كان انصرافه على هذه الوجه.

٤ – وأعرق الأوجه في البعد والغرابة من يعتذر عن هم يوسف بأن ذلك كان قبل النبوة، أي فعل المعصية في هذا الدور غير ممتنع على الأنبياء، فإن صاحب هذا القول غافل عن قوله تعالى: ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ فإن الرسالة إنما يختار لها أصحاب الأعمال المرضية، ولا يختار الله رسله من أهل الفسق، وهو تعالى يرشحهم لما يضطلعون به من رسالته، فهو يعصمهم عن الخسائس، وسائر ما يعير به الناس، وأي عار أكبر من أن يذهب الشخص إلى المعصية ثم لا يرجع إلا بعد الزجر والنهي.

٥ – ويقول آخرون: إنه همّ همّ الطبيعة، وهو أمر لا اختيار للمرء فيه وهؤلاء أخف قولاً مما تقدم.

٦ – ويقول آخرون: إنه هَمّ هَمّ ترك، ولست أطمئن إلى هذا القول، وأنه وجد منه هم على أي حال، وتكلف آخرون فقالوا: إنه هم ليضربها.

القول الصحيح

والقول الذي لا غبار عليه ويلتئم مع قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ ومع قوله في الآية نفسها: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ **أن همه عليه السلام بها امتنع لوجود البرهان** عنده، وهو حرصه على الطاعة، واستمساكه بآداب آبائه، وبأخلاقهم الزكية الطاهرة، ولا يقال: إن قوله: وهم بها لا يصلح جوابا، لأن لولا، لها الصادارة، لأنا لا نقول: إن هذا هو الجواب، ولكنه دليل الجواب – ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، لأن لولا حرف امتناع لوجود، امتنع الهم لوجود البرهان، وامتنع إبداء أم موسى بما في نفسها على ابنها لوجود ربطنا على قلبها، والجواب محذوف تقدم دليله على لولا[2].

ما قيل عن شاهد يوسف:

قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[3].

---

(١) سورة القصص آية ١٠.
(٢) قصص الأنبياء ص١٥٨–١٥٩.
(٣) سورة يوسف الآيات ٢٦، ٢٧، ٢٨.

عند تفسير هذه الآيات الكريمة تحدث أبو السعود عن الذي اقترحه بفراسته معاينة القميص، ليتبين ما إذا كان قُدَّ من قُبُلٍ أو من دُبُرٍ، حتى يكون برهانا قويا يعلم به قول الصادق، وأمارة ناطقة بصدق يوسف وكذب امرأة العزيز، فذكر أقوال العلماء في هذا الشاهد، فقال ما نصه: قيل: هو ابن عمها، وقيل: هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب. وقيل: كان حكيما يرجع إليه الملك ويستشيره.

وقد جوز أن يكون بعض أهلها قد بصر بها من حيث لا تشعر، فأنطقه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له، والقيام بالحق.

وقيل: (كان الشاهد ابن خال لها صبياً في المهد، أنطقه الله تعالى ببراءته وهو الأظهر، فإنه روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى عليه السلام» رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال صحيح على شرط الشيخين)[1].

أقول: ذكر الإمام ابو السعود آراء العلماء في الشاهد الذي اقترح معاينة القميص، ثم رجح أنه كان صبياً في المهد، حيث قال: وهو الأظهر، واستشهد على ذلك بحديث، تكلم أربعة وهم صغار، وعد منهم شاهد يوسف عليه السلام.

قلت: وهذا **غير مسلم**، وذلكم لأمرين، – **والقول الصحيح في الشاهد** أنه كان رجلاً –.

الأول: أن الحديث الصحيح الذي ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد هو ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى عليه السلام، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له: جريج، كان يصلي، فجاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات. وكان

---

(١) تفسير أبي السعود جـ٤ ص٢٦٨.

جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها، فولدت غلاماً، فقالت: من جريج، فأتوه، فكسروا صومعته، وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال الراعي: قالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا، إلا من طين.

وكانت امرأة ترضع ابناً لها من بني إسرائيل، فمر رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها، وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني، ثم أقبل على ثديها يمصه، قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يمص إصبعه، ثم مر بأمة، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها فقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت: لم ذلك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون: سرقت، زنت، ولم تفعل[1]»، فنص الحديث كما ترى لم يذكر لنا شاهد يوسف ضمن الذين تكلموا في المهد، أما الحديث الذي ذكره أبو السعود – استشهاداً على ما ذهب إليه من أن الشاهد كان صبياً في المهد – فقد أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره موقوفاً على ابن عباس[2].

والمرفوع مقدم على الموقوف كما هو معلوم، فضلاً عن أن سند الحديث إلى ابن عباس ضعيف كما قال ابن حجر[3].

وسبب هذا الضعف أن فيه علتين، كما قال ناصر الدين الألباني:

الأولى: عطاء بن السائب، فإنه كان قد اختلط، وحماد بن سلمة روى عنه قبل الاختلاط، خلافاً لما يظن خلافه من المعاصرين.

الثانية: ابن وكيع وهو سفيان، قال الحافظ: كان صدوقاً، إلا انه ابتلي بورّاقه، فأدخل عليه ما ليس من حديثه، فنصح فلم يقبل، فسقط حديثه[4].

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: «واذكر في الكتاب مريم» جـ٦ ص٥٤٩.
(٢) جامع البيان جـ٢ صص١١٥.
(٣) فتح الباري جـ٦ ص٥٥٣.
(٤) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة جـ٢ ص٢٧٢.

الأمر الثاني: أن ظاهر النص القرآني يفيد أن الشاهد كان رجلاً، وليس طفلاً في المهد، إذ لو كان طفلاً لكان مجرد كلامه أنها كاذبة، كان حجة قاطعة على صدق يوسف عليه السلام، لأنه من المعجزات كما يقول المفسرون[1]، ولما احتيج أن يقول: من أهلها، ولا أن يأتي بدليل حي على براءته وهو قوله: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الآية.

وهذا – ولا ريب – منطق الكبار العقلاء الحكماء الذين يتوصلون من خلال القرائن إلى الحقيقة، ويضعون تحت أيديهم حيثيات ما يحكمون به، ولا سيما في أمثال تلك القضايا، حيث يحكم فيها كبار الناس وعقلاؤهم، لا أطفالهم وصغارهم، ورحم الله الإمام الرازي، فقد ارتضى هذا الرأي ورجحه على غيره، وقال بأوليته، وذكر لذلك وجوهاً:

منها: أن الله تعالى قال: ﴿**وشهد شاهد من أهلها**﴾ وإنما قال من أهلها ليكون أولى بالقبول في حق المرأة، لأن الظاهر من حال من يكون من أقرباء المرأة ومن أهلها أن لا يقصدها بالسوء والإضرار، فالمقصود بذكر كون ذلك الرجل من أهلها: تقوية قول ذلك الرجل، ولو كان هذا القول صادراً عن الصبي الذي في المهد لكان قوله حجة قاطعة، ولا يتفاوت الحال بين أن يكون من أهلها، أو من غير أهلها، وحينئذ لا يبقى لهذا القيد أثر.

ومنها: أن لفظ الشاهد لا يقع في العرف إلا على من تقدمت له معرفة بالواقعة وإحاطة بها[2].

فهذه الوجوه التي ذكرها الإمام الرازي تعزز ما ذهبنا إليه من أن الشاهد كان رجلاً، وليس صبياً في المهد، وتدل دلالة واضحة على ذلك.

---

(١) انظر الألوسي عند تفسيره لهذه الآية جـ١٢ ص٢٢٢.
(٢) تفسير الفخر الرازي جـ١٨ ص١٢٦.

موقف يوسف وامرأة العزيز

إن امرأة العزيز لما رأت سيدها لدى الباب يريد الدخول، وكان معه ابن عمها، أرادت أن تشفي غل صدرها، وحنقها على يوسف، لما فاتها من التمتع به، وتوقعه في الشر، جزاء إبائه عن مطاوعتها، تقدمت نحو زوجها باكية شاكية قائلة: «ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم» وأفهمته أنه راودها عن نفسها، وأنها أبت عليه، وأما يوسف فقد وجد نفسه في مأزق حرج. وأن الصدق سبيل نجاته، وأنه اللائق بمقابلة العزيز بما صنع معه من جميل، وما أسدى إليه من المكرمة، فقال: هي راودتني عن نفسي، وأنا امتنعت وأبيت، حتى آل أمرها إلى أن نازعتني ثوبي، وهنا ظهرت فراسة ابن عمها في تحقيق الحق من قولهما. فقال: إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قدّ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين، لأن الهاجم على المرأة وهي تدافعه إنما يظهر أثر دفاعها في مقدمة قميصه، والهارب من المرأة العالقة بثوبه إنما يظهر أثر ذلك من الخلف، لأنه يكون مستدبراً لها، وهي تجاذبه من خلف، فظهر حق يوسف، وكذب امرأة العزيز، بأن رأوا قميصه قد من دُبُر، فكذبت وهو من الصادقين، فعاد العزيز على امرأته باللوم، وقال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم، وأمر يوسف بكتمان الخبر، وأمرها بالاستغفار لذنبها، وصرح بأنها مخطئة فيما صنعت. اقرأوا قوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

الشهادة ببراءة يوسف

للفخر الرازي كلمة طيبة أوردها في تفسيره وهي: أن يوسف قد شهد الله تعالى ببراءته بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وشهد الشيطان ببراءته بقوله: ﴿**فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين**﴾ وشهد ببراءته الشاهد من أهل امرأة العزيز إذ قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ وشهد ببراءته النسوة اللاتي قطعن أيديهن بقولهن: ﴿**ما علمنا عليه من سوء**﴾ وشهدت ببراءته زوجة العزيز بقولها: ﴿**الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصداقين**﴾ فالذي يريد أن يتهم يوسف بالهم عليه ان يختار أن يكون من حزب الله أو من حزب الشيطان، وكلاهما شهد ببراءة يوسف، فلا مفر له من الإقرار بالحق على أي حال، وهو براءة يوسف من الهم بها.

شيوع الخبر في المدينة وتحدث النساء به

شاع نبأ حادثة امرأة العزيز وفتاها في أرجاء المدينة، ولاكته أفواه النساء لائمات لها على هذا الغرام، وشرعن يضللنها ويلمنها بفادح اللوم، ودوى صدى هذا القول في أذن امرأة العزيز، فأخذت في الكيد لهن، ليعذرنها، ولا يعذلن، فأرسلت إلى طائفة من نظيراتها العاذلات، وأعتدت لهن مكاناً أنيقاً يجلسن فيه، وقدمت إليهن طعاماً يحتاج إلى القطع بالسكن، وآتت كل واحدة منهن سكيناً وفي تلك اللحظة أمرت يوسف أن يخرج عليهن فبهرهن جماله، وألهاهن عن أن يحسنّ قطع الفاكهة التي بأيديهن، فصرن يقطعن أيديهن، وشغلن بمطالعة محاسن خلقه، والتأمل في جماله، واللذة في ذلك تغمر ألم جراحهن بأيديهن، فأعلن إكبارهن لذلك الجمال، وقلن: «**ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم**».

حينئذ باحت امرأة العزيز لهن بما يكنه فؤادها من اللوعة، وقالت لهن – كما يشكو العاشق بلواه لعاشق مثله –: ﴿**فذلكن الذي لمتنَّني فيه، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين**﴾.

فأنتم ترون أن امرأة العزيز كتمت أمرها حتى صادتهن وأوقعتهن في شباك غرامه، وصرن كلهن في الهوى سواء، ثم باحت لهن بذات نفسها آمنة النميمة عليها، ومن هذا القبيل قول القائل:

لا تخف ما فعلت بك الأشواق واشرح هواك فكلنا عشاق

وأنتم ترون – أيضاً – أن عشقها فضحها في المرة الأولى، وكذبت لتتخلص من العار، ولتتشفى من ذلك الرجل الذي وصل حبه إلى شغاف قلبها، وانضج فؤادها بنار هواه، فلم تحسن التخلص، ولم يكن كذبها منجياً لها من اللوم، وكان من حقها أن ترتدع، ولكن الهوى صرعها للمرة الثانية، فتوعدته بأن ينصاع لأمرها، وإلا كان مأواه السجن، ولقاء الصغار بدخوله.

ولما فشت القالة بذلك رأى العزيز وحسّن له مشيروه أمراً: هو أنه لا يخلصهم من العار، ويكف ألسنة الناس عنه وعن زوجته إلا زجه في السجن، ليخيلوا للناس أنه مازج في السجن إلا لأنه آثم كاذب في ادعاء البراءة، وأن زوجة العزيز بريئة مما قذفت به، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿**ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين**﴾.

وإني ألفت نظركم إلى لفظ «من بعد ما رأوا الآيات» فإن رؤية الآيات الدالة على صدق يوسف وكذب امرأة العزيز فيما حاولت أن تلصقه به من عار الخيانة لسيده، كان ظاهراً واضحاً، وكان من حق العزيز أن يوقع بها العقاب على ما اجترحته، ويكرم يوسف، ويظهر للناس براءته، «ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى» ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، بل عمد هو وآله إلى الإساءة إلى من أحسن عمله، وحفظه بالغيب في زوجه، ورعى له حق السيادة والإكرام، فقد عمد إلى المسيئة الكاذبة المستهينة بكرامتها

وكرامة زوجها، والتي عرضت عفافها بضاعة مزجاه في سوق الفسوق، فلم يمسها بأذى، بل قدم يوسف البريء النقي الطاهر فدية عن سمعتها.

والآية تشير من طرف خفي إلى أن القوم استعانوا بالقوة القضائية على الكيد ليوسف، وزجه في السجن، لأن رؤية الآيات على براءته إنما تكون أمام القضاء، وهو إما رسمي أو عرفي، ولعل القضاء العرفي هو الذي استعملوه، وهو قضاء خير منه الاستبداد، وهو شر أنواع القضاء.

يوسف في السجن

أُدخل يوسف السجن على غير جريمة، ودخل معه السجن فتيان: أحدهما: رئيس الخبازين عند الملك، والثاني رئيس سقايته، فبعد يوم آتاه صاحب شراب الملك، وأخبره أنه رأى في منامه أنه يعصر في كأس الملك الخمر، يتناول العنقود من العنب ويعصره في كأس الملك، وجاء الخباز وقال له: إني رأيت فوق رأسي طبقاً من الخبز، والطير تأكل من ذلك الخبز، وطلبا إليه أن ينبيء كل واحد منهما بتأويل رؤياه.

انتهز يوسف هذه الفرصة ليعلن لهم دينه، ويدعوهم إليه، وقام فيهم خطيباً ينبئهم بمقدرته على تأويل الرؤيا، وأنه لا يأتيهما طعام إلا نبأهما بتأويله قبل أن يأتيهما، وأن ذلك مما علمه الله تعالى إياه، بتركه ملة الأقوام الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، واتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأن ذلك كله من فضل الله عليه وعلى ذويه وعلى الناس، وسأل صاحبيه: أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار، الذي أمر ألا يعبد الناس سواه، وأن ذلك هو الدين القويم، وأن جهلة الناس لا يعلمون، ثم قال: «يا صاحبي السجن، أما أحدكما (الساقي): فيسقى ربه خمراً، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان» وفي تلك الحال أمل يوسف أن يجد الفرج لما هو فيه من الضيق على يد الفتى الذي ظن أنه ناج، وقال له: أذكرني عند ربك، فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين، وتحقق تأويل المنام كما قال[1].

---

(١) قصص الأنبياء ص١٦٠-١٦٣.

ما قيل في المدة التي لبثها يوسف في السجن

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[1].

عندما أخذ ابو السعود يفسر هذه الآية تعرض لمدة سجن يوسف عليه السلام فقال: (وأكثر الأقاويل أنه لبث في السجن سبع سنين، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل: «اذكرني عند ربك» لما لبث في السجن سبعاً بعد الخمس)[2].

أقول: ما ذكره أبو السعود من تحديد المدة التي لبثها يوسف عليه السلام في السجن بكونها سبع سنين، قول لا دليل عليه، ولعل الذين قالوا بهذا الرأي استندوا في ذلك إلى أن البضع في اللغة يطلق على السبع.

والتحقيق: أنه كما يطلق على السبع يطلق – كذلك – على ما بين الثلاث إلى التسع، وقيل: ما بين الثلاث إلى العشر.

قال الفراء: البضع ما بين الثلاث إلى ما دون العشرة، وقال أبو عبيدة: البضع ما لم يبلغ العقد، ولا نصفه، يريد ما بين الواحد إلى أربعة[3].

وما دام الأمر كذلك، فجائز أن يكون أي عدد من ذلك هو مدة بقاء يوسف في السجن، بعد أن قال للفتى: «اذكرني عند ربك» دون أن نقطع بأي عدد كان، بعد أن أبهمه القرآن ولم يحدده.

القول الصحيح: أن لا نجزم بمقدار معين من العدد، قال الإمام فخرالدين الرازي في التعقيب على ذلك: والصحيح أن هذه المقادير غير معلومة، وإنما القدر المعلوم أنه بقي محبوساً مدة طويلة، لقوله تعالى: «وادَّكر بعد أمة»[4].

---

(١) سورة يوسف آية ٤٢.
(٢) تفسير أبي السعود جـ٤ ص٢٨٠.
(٣) لسان العرب جـ١ ص٢٩٨.
(٤) تفسير الفخر الرازي جـ١٢ ص١٣٢.

أما الحديث الذي أورده أبو السعود في هذا الصدد، فلم يثبت بهذا اللفظ، وإنما الثابت ما أخرجه ابن جرير الطبري في تفسير الآية حيث قال: حدثنا ابن وكيع، حدثنا عمرو بن محمد، عن إبراهيم بن زيد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ولو لم يقل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث، حيث يبتغي الفرج من عند غير الله».

وأقول: إنَّ الإمام أبا السعود خالف في متن الحديث، وذكره بغير اللفظ الذي فيه، وأورده مرفوعاً، وهو ليس كما قال: بل إنه حديث مرسل، لا تعلم صحة نسبته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال عنه الحافظ ابن كثير: هذا الحديث ضعيف جداً، لأن سفيان بن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد هو الخوزي أضعف منه أيضاً، وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كل منهما، وهذه المرسلات – ها هنا – لا تقبل، حتى لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن. والله أعلم[١].

ويعلق صاحب تفسير المنار على هذا الحديث بما يفنده سنداً ومتناً، فيقول في التعقيب على ما ذكره ابن كثير فيما نحن فيه: إن ما قاله (يعني ابن كثير) في هاتين الراويين للحديث هو اهون ما قيل فيهما، ومنه: أنهما كانا يكذبان، هذا أولاً، وثانياً: أنه يعني بقوله: (ها هنا) الطعن في نبي مرسل بأنه كان يبتغي الفرج من عند غير الله، وهو الجدير بألا تحجبه الأسباب الظاهرة عن واضعها ومسخرها وخالقها عز وجل.

يعني بقوله: (لو قبل المرسل من حيث هو): ما هو الصحيح عند علماء الأصول[٢].

قلت: وجمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل – أيضاً –، وجعلوه من قسم الضعيف، لاحتمال أن يكون المحذوف غير صحابي، وحينئذ يحتمل أن يكون ثقة أو غير ثقة، وعلى الثاني لا يؤمن أن يكون كذاباً[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٣١٧.
(٢) تفسير المنار جـ١٢ ص٢٧٥.
(٣) نزهة النظر شرح نخبة الفكر للحافظ ص٢٧، نقلاً عن كتاب الإسرائيليات والموضوعات في التفسير لأبي شهبة ص٤٤٧.

ومن ذلك يتضح لنا عدم الثقة في هذا الأثر الذي أورده أبو السعود يشرح به النص القرآني، ولا ينبغي أن يكون حجة على التفسير بالمأثور.

الفرج ليوسف

بعد تلك السنين أراد الله أن يعجل بالفرج ليوسف، فهيأ لذلك الأسباب، وذلك أن الملك رأى سبع بقرات جميلات طالعة من النهر، فارتعت البقرات في روضة، ثم رأى سبع بقرات أخرى قبيحة المنظر عجافاً، خرجت من النهر، وأكلت البقرات الأولى السمينة، ثم استيقظ من منامه، ثم عاد فرعون إلى رقاده، فرأى سبع سنابل خضراء حسنة طالعة في ساق واحدة، وإذا سبع يابسات خلفها قد لفحتهن الريح الشرقية فغدت على السنابل الخضر فأكلتها.

أصبح فرعون منزعجاً لهذين المنامين، فدعا بالسحرة وكل من له علم يسألهم عن تأويل هذا المنام، فلم يجد عند أحد منهم جوابا، بل قالوا: أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين، في ذلك الوقت انتبه رئيس سقاة الملك إلى الأمر، وتذكر ما قدم بما حدث، ومر على خاطره منامه الذي رآه في السجن، ويوسف الذي عبره له تعبيراً كأنه يشاهد أمراً واقعاً، فعرض الأمر على الملك، وقص عليه حلمه، وحلم رئيس الخبازين، وأن غلاماً عبرانياً في السجن لرئيس الشرطة قد عبر لهما رؤياهم، فكان الأمر كما قال، وطلب أن يرسله إلى السجن، ليأتي بالتعبير الذي لا مراء فيه من يوسف، فأرسله الملك إليه.

فلما التقى يوسف قال له: أيها الصديق، أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات تأكل الخضر، فأخبره يوسف بتأويل ذلك، وهو أن مصر يأتي عليها سبع سنين مخصبات، تجود فيها بالغلات الوافرة، ثم سبع سنين مجدبة تأتي على المخزون من السنين السبع التي تقدمتها، ثم بعد ذلك تأتي أعوام الخصب والرغد، وأن عليهم أن يقتصدوا في سني الخصب السبع، ويخزنوا ما فضل عن القوت في سنبله، حتى إذا حل الجدب وجدوا في مخازنهم ما يسد الرمق إلى أن يأتي الخصب.

عاد رئيس السقاة إلى الملك بتأويل رؤياه، فسرّ بها، وعلم أنه تأويل مناسب متفق مع الرؤيا، فقال الملك: ائتوني بيوسف، فلما أرادوه على ذلك أبى أن يخرج من السجن حتى يعرف أمره على حقيقته، وطلب إلى الرسول أن يعود إلى الملك، ويسأل عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ولا بد أن يكون قد سماهن له بأسمائهن، فلما أحضرهن الملك وسألهن عن شأن يوسف، قلن: حاشى لله، ما علمنا عليه من سوء، وأنكرن سماعهنَّ شيئاً عن شأنه وشأن امرأة العزيز وهذه الآيات المتعلقة بهذا الموقف ﴿**وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشى لله ما علمنا عليه من سوء**﴾.

في الكلام إيجاز كا هو شأن القرآن من عدم ذكر الأشياء التي تكون معلومة من المقام، وفي الكلام شواهد تدل عليها، والذي يفهم من الآيات، أن يوسف كبر عليه أن يخرج من السجن، وعليه سمة المجرمين الخائنين ليقف أمام الملك، فأراد ألا يخرج من السجن إلا وهو ثابت البراءة، مرفوع الرأس، أبيض الصحيفة، فذكر الحادثة على وجهها، وأنه بريء منها وأن الجانية إنما هي زوجة العزيز التي بهتته في وجهه، وأن الإشاعة في البلد كانت أن امرأة العزيز راودته عن نفسه، وآية ذلك النسوة اللاتي قطعن أيديهن، فإنها لما سمعت أنهن لائمات لها دعتهن إلى دارها، (وسماهن طبعاً) وأنهن لما رأينه قطعن أيديهن، وراودنه عن نفسه – أيضاً – لها ولأنفسهن[1]، وأن امرأة العزيز أقرت أمامهن قائلة: ﴿**فذلكن الذي لمتنني فيه، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكون من الصاغرين**﴾، قالت ذلك على ملأ منهن، وأنها نفذت وعيدها بإلقائه في السجن، وهو بريء مما يوجب سجنه، وشهادتهن بما سمعنه من امرأة العزيز برهان براءته، وتثبيت لقوله، من أن الملك أحضرهن وسألهن عن شأنهن في ذلك اليوم الذي راودن فيه يوسف عن

---

(١) «وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين».

نفسه، فكان جوابهن «حاشى لله ما علمنا عليه من سوء» وهذا يقتضي براءته، وأنهن أتين بالشهادة على وجهها،وهذا الذي أحرج مركز امرأة العزيز، وسد في وجهها المسالك، فلم تجد للإنكار سبيلاً، فقالت: الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، وهو مما يبريء ساحة يوسف، أن امرأة العزيز لما رأت أن يوسف الذي زجت به في السجن ظلما قد أكرمه الله تعالى حتى صار من هم الملك أن يأتي به ليستخلصه لنفسه، وأن تماديها في اتهامه بما لم يقترف لا يجديها نفعاً، ولا يلحق بيوسف ضرراً، وطدت نفسها على الصدق في شأن يوسف لأول مرة، بعد أن بهتته في وجهه ورمته بما هو منه براء، وظلت مصرة على باطلها السنين الطوال، فأقرت بما لا تقر به المرأة إلا مغلوبة على نفسها، وباحت بما كتمته عن زوجها وآلها سنين عدة، فقالت: ﴿**الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، وما أُبريء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم**﴾.

بهذا الإقرار الصريح الدال على صدق يوسف وبراءته مما رُمي به ظلماً، ذلك الإقرار الذي ما كان يوسف يظن أنه يصدر من امرأة العزيز الجانية عليه، الموقعة له في السجن، لم يعد يومئذ في حاجة إلى جمع الأدلة، وتصيد البراهين على براءته، وإقامة الحجج على أنه حُبس ظلماً وعدواناً، وقدم فدية عن عرض امرأة العزيز التي أوقعت نفسها ذبيحة بيد مكرها وقسوتها.

وبعض المفسرين يحمل قوله تعالى: «وما أبريء نفسي» على أنه من كلام يوسف، وهو خطأ، لأن نظم الآيات وروح الموضوع يأبيان ذلك، وإنما هو من قول امرأة العزيز، لأن ذلك صدر ويوسف في السجن، قبل أن يقول الملك: ائتوني به استخلصه لنفسي.

يوسف بحضرة الملك

لما ظهرت براءة يوسف للملك هذا الظهور، وخرج يوسف واضح الحجة، مستقيم المحجة، قال الملك: ائتوني به أستخلصه لنفسي، وحينئذ رأى يوسف

أنه لا عليه، فجاء الملك وكلمه، فسرّ الملك به وأعجبه عقله، وحسن تعبيره للرؤيا، وسأله أي عمل يرضاه لنفسه، ويكون فيه سروره، فقال يوسف: اجعلني على خزائن الأرض، وما يخرج منها من الغلات والخيرات، إني حفيظ عليم[1].

ما قيل بشأن تمكين يوسف ودخوله على الملك وتوليه خزائن مصر

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[2].

عندما تعرض أبو السعود لتفسير الآية الأولى، تحدث عن خروج يوسف من السجن، ودخوله على الملك فقال ما نصه: (روي أنه عليه السلام لما جاءه الرسول خرج من السجن ودعا لأهله، وأغفل، ولبس ثياباً جدداً، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره وشر غيره، ثم سلّم عليه ودعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي، وكان الملك يعرف سبعين لساناً، فكلمه بها فأجابه بجميعها، فتعجب منه فقال: أحب أن أسمع منك رؤياي، فحكاها، ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها كأنه رآها، فأجلسه على السرير، وفوّض إليه أمره، وقيل: توفي قطفير في تلك الليالي، فنصبه منصبه، وتزوج راعيل، فوجدها عذراء وولدت له افراييم وميثا، ولعل ذلك إنما كان بعد تعيينه عليه السلام).

وعند تفسيره الآية الثالثة، أعاد الكلام فيما تقدم فقال: (روي أن الملك توَّجه وختمه بخاتمه، وزوده بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدُّرِّ والياقوت،

---

(١) قصص الأنبياء ص١٦٣-١٦٦.
(٢) سورة يوسف الآيات ٤٥، ٥٥، ٥٦.

فقال عليه السلام: أما السرير فأسند به ملكك، وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي، فقال: قد وضعته إجلالاً لك، وإقراراً بفضلك، فجلس على السرير، ودانت له الملوك، وفوّض إليه الملك أمره، وأقام العدل بمصر، وأحبته الرجال والنساء، وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام في السنة الأولى بالدنانير والدراهم، وفي السنة الثانية بالحلي والجواهر، وفي الثالثة بالدواب ثم بالضياع والعقار، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً، فقالوا: ما رأينا كاليوم ملكاً أجل وأعظم منه، ثم أعتقهم ورد إليهم أموالهم[١].

أقوال:

١ - ما ذكره أبو السعود من دخول يوسف على الملك وسلامه عليه بالعبرانية وإجابة الملك له، وكان يعرف سبعين لغة، وزواج يوسف بامرأة العزيز وإعادتها عذراء كما كانت، دون أن يعزوه لقائل إنما هو من قول وهب بن منبه، على ما ذكره الثعلبي في العرائس[٢].

وهذه الأخبار الإسرائيلية التي نقلها أو اقتبسها أبو السعود عمن سبقه كابن جرير الطبري في تفسيره[٣]، والثعلبي في قصصه من قبيل ما يحتمل الصدق والكذب.

ولكن الأولى عدم الاشتغال بها، فالإمساك عنها خير من روايتها، لأن الاشتغال بها عبث لا فائدة فيه.

وحسبنا أن نقف عند ما قصّه الله علينا، من غير أن نفسد جمال تفسير القرآن الكريم بمثل هذه الإسرائيليات التي لا سند لها من كتاب أو سنة، فهما المصدران اللذان يعول عليهما في بيان مثل هذه الأمور، ولم يثبت أنهما بينا لنا شيئاً منها، ولا أدري من أين جاء الرواة بها؟

---

(١) تفسير أبي السعود جـ٤ ص٢٨٦-٢٨٧.
(٢) قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ص١١١.
(٣) جامع البيان جـ١٣ ص٤-٥.

والحق، أنه لا مصدر لذلك إلا ما جاء في الإصحاح الحادي والأربعين من سفر التكوين، فقد جاء فيه أن الملك حين دخل يوسف عليه قال له: (جعلتك على كل أرض مصر، وخلع خاتمه من يده، وجعله في يد يوسف، وألبسه ثياب بوص، ووضع طوق ذهب في عنقه، وأركبه في مركبته الثانية... وأعطاه (سنات بنت فوطي فارع) زوجة، وكان يوسف ابن ثلاثين[١] سنة حين هذا الحادث.

ومن ذلك يتبين أن مثل هذه الروايات إنما هو مما عند أهل الكتاب، وغني عن البيان أن ما عندهم ليس بحجة إلا إذا ورد في شرعنا ما يؤيده.

ويعجبني في هذا المقام قول الشهاب العراقي، فقد نص على أن زواج يوسف بامرأة العزيز وإعادتها عذراء كما كانت لا أصل له، ولا يعول عليه فقال: (وشاع عند القصاص أنها عادت شابة بكراً، إكراماً له عليه السلام، بعدما كانت ثيباً غير شابة، وهذا مما لا أصل له، وخبر تزويجها - أيضاً - مما لا يعول عليه عند المحدثين)[٢].

٢ - أما ما ذكره أبو السعود من أن يوسف عليه السلام باع الطعام للناس في أول سنة من سني القحط بالنقود حتى استولى على دنانيرهم ودراهمهم، وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر، وفي الثالثة بالمواشي والدواب، وفي الرابعة بالضياع والعقار، وفي الخامسة بالرقاب والأرواح، فبعيد عن الحق والمنطق والصواب، لأنه قول لا حجة له، ولا دليل عليه، فمثل هذه الأمور - كما ذكرنا آنفاً - يكون طريق العلم بها النقل، وما لم يكن كذلك بل كان يؤخذ من أهل الكتاب، فلا يجوز تصديقه ولا تكذيبه.

وعلى فرض صحة هذه المرويات يحق لنا أن نتساءل (ألم يكن هذا الفعل بهذه الصورة من أفعال المستبدين الجاهلين بالحكم وأساليبه؟ وهذا بالطبع لا يتفق وحكمة يوسف عليه السلام وهو نبي من أنبياء الله تعالى.

---

(١) قصص الأنبياء ص١٦٦-١٦٧.
(٢) تفسير الألوسي جـ١٣ ص٥.

فماذا يكون حال دولة استولت حكومتها على جميع ما في أيدي الناس حتى تجاوزت الممتلكات إلى النفوس والأرواح؟

وماذا يبقى للمرء في الحياة وهو يقدم عرضه أو فلذة كبده نظير لقمة من العيش يعيش عليها لفترة قليلة من الزمن؟

إن الموت أهون عليه من أن يسلم زوجته أو ابنته أو أمه نظير تلك اللقمة قرباناً يفتدي به نفسه لوقت من الأوقات.

وماذا يكون حال رعية تقدم كل يوم تنازلاً جديداً حتى تقدم الأهل والولد؟

أهذا هو الحكم والعلم والحفظ الذي امتن الله به سبحانه على يوسف عليه السلام؟ أم أنه النزق والطيش والسفه والاستمتاع بتعذيب الناس وإيلامهم والقضاء على كل أمل في الحياة لهم؟ ولعل المؤمنين بصحة تلك المرويات يحتجون بما جاء فيها من أن يوسف عليه السلام أراد بذلك أن يضرب للملك مثلاً أعلى حتى يستن بسنته في حكم الرعية عندما أطلق سراح الناس بعد ذلك.

ونرد على ذلك بأن هذا ليس بالأسلوب الأمثل والمناسب للوصول إلى تلك النتيجة، بل كان أولى منه أن يظهر للناس من نفسه رقة وشفقة ورحمة وحلماً حتى يخفف من آلامهم، ويقلل ما استطاع من مخاوفهم.

ومن المفيد هنا: أن ننقل رأي الإمام الحافظ ابن كثير في تلك المرويات الإسرائيليات التي تسربت إلى تراث المسلمين مما هو عند أهل الكتاب، والتي أكثر من ذكرها أبو السعود وغيره من المفسرين.

يقول ما نصه: وما ذكره بعض المفسرين من أنه يعني يوسف باعهم في السنة الأولى بالنقود، وفي الثانية بالمتاع، وفي الثالثة بكذا، وفي الرابعة بكذا حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعدما تملك عليهم جميع ما يملكون، ثم أعتقهم، ورد عليهم أموالهم كلها – والله أعلم بصحة ذلك – وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، والله أعلم[1].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٣٢٢.

إخوة يوسف في مصر

مرت السبع المخصبة، وأعد يوسف عدته فيها، واتخذ الخزائن، وخزن الغلات في أغلفتها، ثم جاءت السبع المجدبة في جميع أنحاء الأرض، فأما المصريون: فذهبوا إلى الملك يطلبون القوت، فأحالهم على يوسف، ففتح المخازن، وباع لهم من الطعام ما يكفيهم، وأحسّ أهل فلسطين الجوع، وعلموا أن الطعام بمصر، فأرسل يعقوب أولاده ومعهم الجمال والحمير لحمل الطعام وأعطاهم الثمن، فقدموا إلى مصر لشراء قوت لأهلهم، فلما قدموا إلى مصر رآهم يوسف، فعرفهم ولم يعرفوه، وذلك طبيعي،، لأنه فارقهم وهو أمرد غض الإهاب، وقد ناهز اليوم الأربعين من عمره وقد كسته أبهة الملك مهابة تغض عنه عين الناظرين إليه، وأما هم فعلى حالهم في ملبسهم ولغتهم ومنظرهم.

لما جهز يوسف إخوته بالطعام الذي اشتروه، قال لهم: ائتوني بأخ لكم من أبيكم أعاملكم مرة أخرى، فإذا لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي، ولا تأتوا إليّ، وذلك أنه رأى أخوته جميعاً إلا أخاه لأمه بنيامين، وهو أصغر منه، فأخذ في استدراجهم حتى علم منهم حياته، وأنه عند أبيه لم يسمح بمفارقته، فأعطاهم الطعام بلا ثمن – في الواقع – ليأتوه بأخيهم، دون أن يعلموا أنه رد عليهم الثمن، فقالوا له: سنراود عنه أباه، وكان يوسف قد أكرمهم وأظهر لهم السماحة، وقال لفتيانه: اجعلوا بضاعتهم التي دفعوها ثمناً للطعام في أوعيتهم، فإنهم يعودون بها إلينا، لأنهم لا يقبلون ما ليس لهم، وقد جعل يوسف ذلك فخاً لهم ليعودوا.

إخوة يوسف عند أبيهم

عاد إخوة يوسف إلى أبيهم وأخبروه أن المسؤول عن التموين منعهم الشراء من الطعام فيما بعد حتى يأتوه بأخيهم لأبيهم، فتذكر يعقوب قديم أمرهم بحديثه، وعاودته لوعته على يوسف، فقال لهم: «هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل».

فتح إخوة يوسف متاعهم لاستخراج الطعام الذي أتوه به من مصر فوجدوا فضتهم بحالها لم تمس، فكان ذلك مما شدد عزائمهم في الكلام مع

أبيهم وقالوا له: يا أبانا ما نبغي؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا، فإذا سمحت بأخينا يذهب معنا فإننا نمير أهلنا، ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير، وهو شيء يسير عند الملك الذي طلب أخانا، والظاهر أن القحط كان شديداً مما جعل يعقوب يسمح بسفر ابنه تحت شروط اشترطها على أولاده، فقال لهم: لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنّني به، إلا أن يحاط بكم، أي إلا أن تغلبوا على أمركم، فأعطوه موثقهم على الوفاء بما اشترطه، وحينئذ قال: «الله على ما نقول وكيل» وأوصى بنيه أنهم إذا أتوا مصر لا يدخلون من باب واحد، بل يدخلون من أبواب متفرقة، ويقول المفسرون: إن ذلك لخوفه عليهم من الحسد، ولكن الذي أميل إليه أن ذلك منه لئلا يلفتوا نظر الناس إليهم، وذلك يدعو إلى التحدث بشأنهم، والحدس في مقصدهم، فيظن بهم أنهم جواسيس، أو رواداً لمن وراءهم ممن يريد الإغارة على البلاد من الأقوام التي عضها الجوع.

وأياً ما كان من الأمر، فقد عاد إخوة يوسف إلى مصر في طلب الميرة ولم يبق عند أبيهم أحد منهم، ومعهم البضاعة التي ردت إليهم[1].

حيلة يوسف في إبقاء بنيامين عنده

أمر يوسف بتجهيز إخوته، فملأ لهم الأعدال طعاما، وأمر أن توضع حصة كل واحد في عدله، وأن توضع طاسة في عدل الصغير، وهي الطاس التي كان يشرب فيها، فساروا غير بعيد، وفاجأهم وكيل يوسف يناديهم، ويوبخهم على ما صنعوا، وأنهم قابلوا الإحسان بالإساءة، وأنهم سرقوا سقاية الملك (يوسف) فأظهروا البراءة من هذا العمل، وقالوا: من وجدت سقاية الملك في رحله يؤخذ عبداً للملك، ففتش أعدالهم مبتدئاً بالكبير، منتهياً بالصغير، فوجد السقاية في عدل بنيامين، فرجعوا إلى المدينة، ودخلوا على يوسف مستعطفين مسترحمين، ولامهم يوسف على ما صنعوا، فراودوه على ان يأخذ أحدهم عبداً مكان أخيهم، فأبى، وقال: إن الذي وجد الطاس في رحله يستعبد لي، وأما أنتم فاذهبوا إلى بلادكم،

---

(١) قصص الأنبياء ص١٦٧-١٦٨.

وأبى يوسف بعد الاستعطاف، وبينوا له أن أباه متعلق به، وأنه سلوته عن أخيه المفقود أن يطلقه، فقالوا بحضرة يوسف – وقد ملئوا غيظاً على بنيامين، لما أوقعهم فيه من الورطة –: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل، فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم، وقال لهم: أنتم شر مكاناً من هذا السارق، والله أعلم بما تصفون، وكانوا يعنون يوسف، ذلك أن أمه ماتت وهو صغير فكفلته عمته، وتعلقت نفسها به، فلما اشتد قليلاً أراد أبوه أن يأخذه منها، فضنّت به، وألبسته منطقة إبراهيم، كانت عندها، وجعلتها تحت ثيابه، ثم أظهرت أنها سرقت منها، وبحثت عنها حتى أخرجتها من تحت ثياب يوسف، وطلبت بقاءه عندها يخدمها مدة، جزاء له بما صنع، وبهذه الحيلة استبقته عندها، وكف أبوه عن مطالبتها به.

يئس إخوة يوسف من أخذ أخيهم بطريق المبادلة، فقال كبيرهم (روبين): إن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله برد أخيكم، ومن قبل ذلك كان تفريطكم في يوسف، وعلى ذلك لن أبرح الأرض (مصر) حتى يأذن لي أبي في القدوم، أو يحكم الله في شأني، وهو خير الحاكمين، وأشار عليهم بالرجوع إلى أبيهم وإخباره بما كان من أمر أخيهم ومن الملك يوسف، وأن ابنه صار عبداً للملك بسبب سرقة طاسة، وأن ظهور السرقة كان عن ملأ منهم، ومن أهل العير التي كانوا فيها، وأنهم صادقون فيما أخبروا به.

عاد أخوة يوسف عدا أكبرهم وأصغرهم إلى أبيهم، وأخبروه بالأمر على جليته، فلم يدخل عليه هذا القول، وأحاله على أمر دبروه له، كما دبروا لأخيه من قبل، زاد به الحزن حتى ابيضت عيناه، وعاوده من الوجد على يوسف وقد انقضى أمره، ثم إن يعقوب رد أولاده الذين وردوا عليه إلى مصر، ليشتروا طعاماً، وليتحسسوا له شأن يوسف وأخيه، وأمرهم بعدم اليأس من روح الله، فإن ذلك شأن الكفار، فذهبوا كما أمرهم أبوهم.

مقارنة بين القرآن والتوراة في تلك النقطة

إن القرآن يجعل أخذ الموثق على جميع أولاد إسرائيل العشرة، والتوراة تجعله على يهوذا خاصة، ولعله كان متكلما عنهم، وكلمته كلمتهم، وعهده عهدهم.

والقرآن يذكر أن يوسف آوى إليه أخاه، وقال إني أنا أخوك، والتوراة تجعل يوسف مجهولاً من بنيامين إلى أن أخبرهم جميعاً بأنه أخوهم بعد ذكر قصة الطاس.

والقرآن ذكر قولهم: «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل» والتوراة لم تذكرها.

والقرآن يذكر عودة إخوة يوسف إلى أبيهم وإخباره بأن ابنه قد سرق واستعبد في مصر.

والتوراة لم تذكره، ومعلوم أن القرآن مهيمن على ما نقدمه[1].

يوسف يتعرف إلى إخوته

جاء إخوة يوسف، وقالوا: يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر (من الجوع) وجئنا ببضاعة مزجاة (لقلتها)، فأوف لنا الكيل، (وإن الثمن لا يوجب ذلك) وتصدق علينا (بإطلاق أخينا من عبوديتك)، إن الله يجزي المتصدقين، فقال لهم يوسف – مذكراً بما كان منهم من الإساءة –: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟ إذ فرقتم بينهما، وألهبتم صدورهما بنار البعد، ولعله إنما كلمهم بلغتهم لأول مرة، فعرفوا أنه يوسف، لذلك قالوا: «أئنك لأنت يوسف؟ قال: أنا يوسف وهذا أخي، قد مَنّ الله علينا، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، قالوا: تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين، قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين، اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً، وأتوني بأهلكم أجمعين».

فلما فصلت عيرهم من مصر كانت نفس يعقوب مستشرفة لتغيير ما به من حال، ولم يدب اليأس إلى نفسه، بل هو يتوقع الفرج بلقاء يوسف الذي طال حزنه عليه، فقال لمن حوله من جماعته: «إني لأجد ريح يوسف لولا أن

---

(١) قصص الأنبياء ص١٧٠-١٧١.

تفندون» أي لأخبرتكم بأني أتوقع لقاءه، فقالوا له: تالله إنك لفي ضلالك القديم، أي خطئك القديم في اعتقادك أن يوسف باق إلى اليوم، ولم يطل به الانتظار حتى جاء البشير إلى يعقوب بسلامة يوسف وأخيه، وألقى قميص يوسف على وجه يعقوب فارتد بصيرا، وقرت عينه، وبشر نفسه باللقاء لمن حوله، ألم أقل لكم: إني أعلم من الله ما لا تعلمون، ولا بد أن يعقوب لم يقل هذا القول إلا وقد أعلمه الله بحياة يوسف وأنه سيلاقيه.

شد يعقوب وآله أجمعون رحلهم إلى مصر، فلما جاءوا إليها دخلوا على يوسف، فآوى إليه أبويه – أي يعقوب وزوجه خالة يوسف – أمه كانت قد ماتت وهو صغير، وسجد له أبوه وأمه وإخوته الأحد عشر، وقال لأبيه: يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجعلني على خزائن الأرض.

نتائج البحث

١ – كثرة الروايات الإسرائيلية التي ألصقت بيوسف عليه السلام، نظراً لأنه من بني إسرائيل، فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

٢ – إن يوسف عليه السلام قد شب على أكمل الأوصاف عاملاً بما علم من آبائه وأجداده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٣ – الإيمان بالمبدأ يسهل ملاقاة الصعاب ومواجهة العواصف.

٤ – الالتجاء إلى الله عند الابتلاء، لقد اعتمد يوسف عليه السلام على الله تعالى في كل شدة ألمّت به.

٥ – الدعوة إلى الله بمبدئه الذي اعتنقه، فاغتنم فرصة احتياج رئيس الخبازين ورئيس السقاة فأخذ يدعوهما إلى دينه.

٦ – رفضه الخروج من السجن حتى تثبت براءته.

٧ – ضرب يوسف عليه السلام المثل الأعلى في كثير من أنواع الصبر.

قائمة المراجع حسب الترتيب الأبجدي

١ - القرآن الكريم.

٢ - اتجاه التفسير في العصر الحديث، للشيخ مصطفى الحديدي الطير، ط البحوث الإسلامية، العدد ٨٠، ربيع الأول سنة ١٣٩٥هـ.

٣ - الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم، أ. د. محمد حسين الذهبي، الناشر مكتبة وهبة.

٤ - الإتقان في علوم القرآن، للحافظ جلال الدين السيوطي، ط دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.

٥ - أثر القراءات في الدراسات النحوية، د. عبدالعال سالم، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٦ - الأحاديث الضعيفة والموضوعة، لناصر الدين الألباني، ط المكتب الإسلامي.

٧ - أحكام القرآن لأبي بكر المعروف بابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط عيسى البابي الحلبي.

٨ - إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، ط دار الشعب.

٩ - أسباب النزول، للحافظ جلال الدين السيوطي، ط دار إحياء الكتب العربية.

١٠- أسباب النزول، للواحدي النيسابوري، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

١١- الإسرائيليات في التفسير والحديث، أ. د. محمد حسين الذهي، ط مجمع البحوث الإسلامية.

١٢- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، أ. د. محمد أبو شهبة، ط سلسلة البحوث الإسلامية، سنة ١٤٠٤هـ.

١٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، للعماد أبي السعود، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ط بيروت.

١٥- الإعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء، لخير الدين الزركلي، د دار العلم للملايين، بيروت.

١٦- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية.

١٧- الانتصاف على هامش الكشاف، للإمام أحمد بن المنير الإسكندراني، ط دار المعرفة، بيروت.

١٨- أخبار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين البيضاوي، ط دار الفكر.

١٩- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، للحافظ ابن كثير، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، ط مكتبة دار التراث.

٢٠- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، ط دار الفكر، ١٣٩٨هـ.

٢١- البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، ط دار الفكر العربي.

٢٢- تاريخ الطبري، لابن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط بولاق الأولى.

٢٣- تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، للحافظ جلال الدين السيوطي، هدية مجلة الأزهر، ط البحوث الإسلامية، ١٤٠٣هـ.

٢٤- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، ط الدار التونسية.

٢٥- تذكرة الموضوعات، للعلامة محمد أبي الفضل محمد بن طاهر أحمد المقدسي، ط النهضة الحديثة.

٢٦- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق د. محمد البنا وآخرين، ط الشعب.

٢٧- تفسير القاسمي، لمحمد كمال الدين القاسمي، ط عيسى الحلبي، سنة ١٣٣٦هـ.

٢٨- تفسير القرآن الحكيم المسمى (تفسير المنار)، تأليف السيد رشيد رضا، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٩- التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي، ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٠- تفسير المراغي، للشيخ أحمد مصطفى المراغي، ط مصطفى الحلبي، سنة ١٣٧٣هـ.

٣١- تلبيس إبليس، لأبي الفرج ابن الجوزي، ط المطبعة المنيرية.

٣٢- تمييز الطيب من الخبيث، للإمام عبدالرحمن بن علي الشيباني، ط صبيح، سنة ١٣٨٢هـ.

٣٣- تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، لأبي الحسن بن عراق، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف وعبدالله محمد الصديق، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٤- تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، ط دائرة المعارف النظامية بالهند، سنة ١٣٢٦هـ.

٣٥- جامع البيان في تفسير القرآن الكريم، لابن جرير الطبري، ط دار المعرفة، بيروت.

٣٦- الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط الشعب.

٣٧- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للشيخ طنطاوي جوهري، ط الحلبي، سنة ١٣٥٩هـ.

٣٨- حاشية السقا على تفسير أبي السعود، للشيخ إبراهيم السقا، مخطوطة بمكتبة الأزهر تفسير خصوصية رقم (١٣٢٢).

٣٩- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، لموريس بكاي، ط دار المعارف.

٤٠- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للحافظ جلال الدين السيوطي، ط دار المعرفة، بيروت.

٤١- روح المعاني، للإمام شهاب الدين الألوسي البغدادي.

٤٢- زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي، ت/محمد زهير الشاويش، دمشق، ط المكتب الإسلامي، ١٣٨٨هـ، بيروت.

٤٣- سنن أبي داود، للحافظ أبي سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني، ط دار الفكر.
٤٤- سنن ابن ماجه للحافظ أبي عبدالله القزويني، ط دار الفكر.
٤٥- سنن الترمذي، للحافظ محمد بن عيسى الترمذي، ط مصطفى الحلبي.
٤٦- صحيح البخاري.
٤٧- الضعفاء والمتروكين، للإمام أبي الحسن علي بن عمر الدار قطني، ط مؤسسة الرسالة، تحقيق الاستاذ صبحي السامرائي.
٤٨- عمدة التفسير، للحافظ ابن كثير، اختصار المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر، ط دار المعارف، سنة ١٣٧٦هـ.
٤٩- فتح القدير، للإمام محمد بن علي الشوكاني، ط دار الفكر.
٥٠- القاموس المحيط للفيروزأبادي، ط المكتبة التجارية.
٥١- قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس، لأبي إسحاق الثعلبي، ط عيسى الحلبي.
٥٢- قصص الأنبياء، للشيخ عبدالوهاب النجار، الناشر مكتبة دار التراث.
٥٣- الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ط سنة ١٣٨٥هـ.
٥٤- الكتاب المقدس، ط دار حلمي للطباعة.